العدوان.. في الوجدان

المثقف يخرج عارياً من قانا

جمال الدين الخضور

في زمن الانهيار العربيّ المريع، حيث يخضع معظم أراضي العرب للاحتلال العسكري المباشر، ويُحاصَر قسمٌ ثانٍ باللقمة وحبّة الدواء، ويخضع قسمٌ ثالث للتآكل الداخلي، وتنهش آلةُ المركزة الإمبريالية (عبر أدواتها المتعددة) الأطرافَ الجغرافية، وتحاصَرُ أو تحاط مواقعُ أخرى أكثرُ مركزيةً بأحلاف صهيونية - تركية - أمريكية أو بأشباهها... في هذا الزمن، تُسرع خطى المشروع الصهيوني باتجاه سحق الجغرافية والتاريخ العربيين مروراً بسحق العرب بيولوجياً. ولقد كانت الحرب الأمريكية - الصهيونية الأخيرة على القطر العربي اللبناني خطوةً من مسار ذلك المشروع مدفوعةً بنتائج اندفاع النظام العربي الفاضح نحو الذراع الصهيونية للمركزة الإمبريالية الأمريكية، وغياب فعل الغضب العربي الجماهيري المطحون تحت أحذية القمع.

ومهما تعدّدت الأسباب والدوافع المباشرة لهذا الإرهاب الأمريكي - الصهيوني... فإنّ الأسباب الاستراتيجية تبقى الأساس، وهي تكمن في:

- ضرب كلّ بؤرةِ مقاومةٍ تتصدّى بالسلاح لهذا العدوّ الإجرامي وسحقها، خصوصاً أن العدوان الأخير على لبنان أتى بعد الضربات التي وجّهها العدوُّ وسلطةُ عرفات إلى قوى الداخل الفلسطيني المقاومة.

- سحق العرب كبشر، إن لم يكن في أي منطقة من الوطن العربي، فعلى أقلّ تقدير في المناطق القريبة جغرافياً من فلسطين المحتلّة، بحيث يُخلق حزامُ أمانٍ خالٍ من العرب على المدى المنظور، ريثما تُنجز مراحلُ الاستيطان في المناطق المحتلة حالياً، لتنطلق بعدها الدولةُ الصهيونية لإنجاز الخطوة التالية، بعد أن تكون قد سيطرتْ على كلّ مناحي الحياة ومظاهرها في الشرق العربي، عبر خطوات السلام الأمريكيّ الدمويّ المسرع الخطى. والتصحير البشري المطلوب حول الكيان الصهيوني لا يمكن أن يتمّ إلاّ عبر الإبادة البشرية (العِرْقية). والمدقّق في أقوال مجموعة الجنود الصهاينة الذين ارتكبوا مجزرة قانا، يدرك البنية النازيّة العنصرية المؤسِّسة لتلك الممارسة الوحشية. فقد قال أحد الجنود: «إنّ القتلى ليسوا إلاّ مجموعة من العرب»؛ وقال ثانٍ: «إنّنا قمنا بواجبنا وإننا ممتازون، والأمر لا يتعلّق بأكثر من عرابوشيم»؛ في حين قال ثالث: «إنّ ضميري لا يؤنّبني أبداً، بل كان يجب أن نطلق المزيدَ من القذائف لنقتل المزيد من العرب»[1]!

«إسرائيل» تهدف إلى تصحير بشريّ حولَها، خالٍ مِن العرب، عن طريق الإبادة العِرْقيّة!

- ضرب أيّ محاولة تشييد تنموي «حداثي» قادرة على خلخلة التمركز الصهيوني القادم في منظومة الشرق أوسطية المأمولة.

وإذا كان الديناصور الأمريكي في غزوه المستمر للوطن العربي، بمخالبه المباشرة أو من خلال أنيابه الصهيونية كما حدث ويحدث في لبنان وفلسطين مؤخراً، يستند على قوائم عدّة (منها نموّ القدرة الإبادية والتدميرية للمركز الإمبريالي مقابل تهميش المراكز الأخرى وانسحابها، واندفاعُ النظام العربي لإظهار وحدته العضوية مع الكيان الصهيوني وسحق الجماهير العربية وقمع أيّ محاولة من مظاهر الغضب الجماهيري....) إلاّ أنّ من أهم هذه القوائم هو موقف [بعض] «المثقفين» العرب. فلقد انتظر الطفلُ المقتول في مجزرة قانا أو المنصوري أو النبطية من هؤلاء المثقفين الحميّة نفسها التي أظهروها دفاعاً عن سلمان رشدي، فإذا بهم يعومون في مستنقع «الليبرالية» ذات الأنياب الحادّة... وهم يعتقدون بأنّهم ينتصرون بذلك على بعض القوى التغييبية، ناسين أو متناسين أنّ القوى الوطنية المقاومة في لبنان وداخل فلسطين بتعبيراتها المتعددة تقاتل العدوّ الأمريكي نيابةً عن كلّ فقراء العالم وأحراره، وأنّ السلام الناقص الذين هلّلوا له لن يأتي بأكثر من المجازر النازية التي طحنت الأجساد البريئة في قانا والمنصوري والنبطية وغيرها، وفضّلوا «سلاماً ناقصاً على حروب توجّهها وتهيمن عليها أصولياتٌ» تؤوّل الدين تأويلاً بعيداً عن حقيقته(*). وهم بذلك غير مدركين لآليات الفعل الجماهيري، خصوصاً في حالات غياب الأُطر الوطنية الديمقراطية، بَلْ يضعون نصب أعينهم احتمالين لا ثالث لهما: إمّا السلام الأمريكي الصهيوني وإمّا الأصوليات الدينية ذات التأويل الأيديولوجي للدين،

---

(١) تلك هي مجموعة آراء للجنود الصهاينة الذين قاموا بمجزرة قانا، مأخوذة عن دوريّات صهيونية، نشرتها الصحف السورية (ومنها تشرين والثورة، يوم ١٩٩٦/٥/١١). وعرابوشيم تعني «العرب القذرين».

(*) الجملة التي وضعتها هيئة تحرير الآداب بين مزدوجيْن مأخوذة حرفياً مِن مقالة أدونيس المعنونة «حول قضايانا الراهنة» (الآداب، العدد ١٠، ١٩٩٤)، فاقتضى التنويه (الآداب).

ويضعون كلّ القوى المذكورة في سلةٍ واحدةٍ، فيصبح قاتل عبد القادر علولة أو فرج فودة أو حسين مروة أو مهدي عامل.... مساوياً ومطابقاً لمن يقوم بعملية استشهادية ضد الصهيوني المحتل. وهؤلاء المثقفون يصافحون الأصولي اليهودي – الصهيوني في مؤتمراتهم وندواتهم[٢] ويدّعون بأنّه «حداثي»!!؟ وهو يبيد الأطفال العرب، ويضحكون سرّاً وعلانيةً والتُّهُ الحربية تقتل جماعياً القوى القاعدية الجماهيرية التي لا تمتلك من فلسفات التأويل التي يدّعونها إلاّ القدرة على الاستشهاد والقتال ضد عدوٍّ ما عرف التاريخُ بوحشيته إطلاقاً.

تُرى، ألم ينظر هؤلاء المثقفون إلى أصابعهم أو يحدِّقوا في أيديهم التي صافحت شمعون بيريز وهم يرون رأس طفلة مجزرة المنصوري الساخن يتّكئ مبتوراً على حديد سيارة الإسعاف البارد؟ سيقول بعضهم: «صافحناه تحت مظلّة اليونسكو كمنظمة دولية». أجل، منظمة اليونسكو احتفلت بشمعون بيريز بعد مجزرة قانا، وأطلقت اسم رابين على كبرى ساحاتها «التسامح»، فساوتْ بذلك بين رابين والتسامح وبيريز. وفعلت تلك المنظمة ذلك بعد أن قدَّمت للعرب رشوة معروفة للجميع بأن كلّفت سعد الله ونّوس[٣] – المسرحي العربي الكبير – بتلاوة كلمة اليوم العالمي للمسرح كأول مسرحيٍّ عربي يكرَّم بهذا الشكل.

كيف استطاع هشام يانس أن يزور قبر رابين وأن يضيء شمعة عليه، «وكان على هذا الهشام لكي يصل إلى هناك أن يعبر فوق الكرامة، فوق جسد أخيه عبد الله يانس الذي استشهد في تلك المعركة ومعه حوالي مائة فدائي دُفنوا هناك بعد أن داست أجسادَهم دبابات دايان ورابين. تذكّر الأخ البار أن يضيء شمعة للقاتل ونسي أنّه يسير على دم أخيه، فكيف ينسى الدم دمه؟»[٤].

ماذا يقول الطيب الصديقي الذي يصرُّ على الزيارات «الأهلية» البيتية المتبادلة إلى سفّاح مجزرة قانا – شمعون بيريز؟[٥].

إنّ موقف «المثقفين» لا يقل تأثيراً عن قوائم الاستناد الأخرى لآلة السحق الإمبريالي الهادفة إلى الإمعان في تطريف الوطن العربي، خصوصاً أولئك الذين لم ينظّروا لوجود الكيان الصهيوني ولانتمائه «الطبيعي» للمنطقة فحسب، بل تغنّوا بحضارته أيضاً، [يقول توفيق الحكيم في برقيته المرسلة إلى أنور السادات بتاريخ ٦ أيّار ١٩٧٩: «تحية لموقفكم الراسخ أمام الأقزام... لقد أفزعهم صلحُ الفئتيْن المتحضرتين... إلى الأمام نحو الكرامة والحضارة، وخطوة من المتحضرين نقابلها بخطوتين، ولن ترجع مصر مع المتخلفين إلى الوراء...»][٦]، أو أدلجوا لهويته أو ثقافته، أو التقوا مع أدباء يهود – صهاينة داخل فلسطين المحتلة أو خارجها، أو دعوا إلى ما يسمى التطبيع بأي شكل كان. وقد قاله نافون في زيارته للقاهرة (٢٦ تشرين الأوّل – أوكتوبر – ١٩٨٠): «إن الشعبين بحاجة الآن إلى سلسلة متواصلة الحلقات من لقاءات التفاهم والتعاون في المجالات الثقافية الواسعة، أكثر من عقد المزيد من صفقات الاستيراد والتصدير»[٧]، بحيث يصبح من الواضح أنّ المثقفين الآخرين الذين تبرقعوا بالعقلانية للحوار مع «الآخر» – العدو الصهيوني، والانفتاح عليه بحجج متعدّدة (علي سالم، عبد العظيم رمضان، أنيس منصور....) والذين بقوا صامتين، والذين استبدلوا شعار (أنا أو العدو) بآخر (أنا والعدو)[٨]، والذين نشطوا بفعاليات الندوات المشتركة (غرناطة، بيت الحكمة....) والذين دافعوا عنهم....! إنّ كلّ هؤلاء، خرجوا من حمامات الدم في قانا والمنصوري والنبطية عراةً تماماً، بعد أن سقطت آخر ورقة توت كانت تستر مديحهم الأعرج «لحداثة» العدو الصهيوني – الأميركي و«حضارته». فهؤلاء هم مثقفو الذاكرة المثقوبة التي نسيت كيف احتُلت فلسطين، ونسيت صبرا وشاتيلا، والحرم الإبراهيمي وبحر البقر، وقبيّة، ودير ياسين، وكفرقاسم، وملجأ العامرية...

إن المثقفين والمبدعين مطالبون بالصراخ الدامي المعبِّر عن غضب العرب الحقيقي، وقدرتهم على كسر الزمن الإمبريالي ورسم تاريخهم الحضاري عبر مشروع نهضوي عربي يدافع أوّلاً عن مقوّمات الهوية العربية في سيرورتها الصاعدة، أمام عمليات التشتيت والإبادة والسحق، وينهض عبر الاشتباك

(٢) يرجى العودة إلى حيثيات ندوة غرناطة، وبيت الحكمة....

(٣) كنتُ أنتظر (أنا الفقير لله تعالى وللعلم..) من أستاذنا الكبير سعد الله ونّوس، خصوصاً بعد كلمته الرائعة في يوم المسرح، ورأيِهِ في العدوان الصهيوني على لبنان، أن يصدر بياناً يحتجُّ فيه على تلك الحفاوة التي استُقبل فيها سفّاحُ مجزرة قانا في اليونسكو، في باريس، وعلى إطلاق اسم رابين على ساحتها؛ لكننا «نبقى مصابين بالأحلام والآمال».

(٤) نزيه أبو نضال، جريدة **المجد** الأردنية، عدد ١٠٨ تاريخ ٦ أيار ١٩٩٦.

(٥) عاطف عودة، جريدة **السفير**، الأربعاء ١٩٩٦/٥/٨.

(٦) ردّت لجنة الدفاع عن الثقافة القومية، وهي لجنةٌ شكّلها في نيسان – ابريل ١٩٧٩، مجموعةٌ من المثقفين المصريين الذين رفضوا اتفاقيات «كامب ديفيد»، على برقية الحكيم ببيان أكدت فيه أن «منطق توفيق الحكيم يلتقي ومنطق عتاة الصهيونية. فالحكيم يقسم المنطقة إلى معسكرين: معسكر الإسرائيليين المتحضّرين، ومعسكر العرب المتخلفين... ويجعل حضارة مصر مرهونة باقترابها من الإسرائيليين وانفصالها عن العرب....». ويتابع بيان اللجنة: «بتقسيم المنطقة إلى معسكر تقدم ومعسكر تخلُّف، يُفرِغُ الحكيم الصراعَ العربيّ الإسرائيليّ من كل محتوى سياسي وطني تحرّري، ويفرغ السياسةَ الإسرائيليةَ الصهيونية من كل محتوى عدواني عنصري، وكأنّ إسرائيل لم تغتصب أرض فلسطين، ولم تحتلّ، ومازالت الأرضُ العربية...» [المادة مأخوذة من تحقيق للناقد العربي وائل عبد الفتاح بعنوان «من توفيق الحكيم إلى مدحت صالح – التطبيع بين الانتهازية السياسية والإفلاس الفني»، مجلة **روز اليوسف** العدد ٣٥٣٥ تاريخ ١٩٩٦/٣/١١].

(٧) يقول الناقد وائل عبد الفتاح في تحقيقه الوارد أعلاه: «... ويمكن أن نرى زيارة نافون نموذجاً دالاً على أسلوب العقل الإسرائيلي في تذويب أسوار الحصار على وجوده ثقافياً... حيث حكى بفخر عن انبهار طه حسين بالعلاقات داخل مجتمع الكيبُوتْس والمستوطنات اليهودية وذلك في الزيارة التي قال نافون إنّه رافقَهُ خلالها». ويورد الناقد بعد ذلك ملحوظةً مفادها أنّ زيارة طه حسين لم يسبق الإشارة إليها إلاّ في محاضرات د. حسين فوزي في جامعة تل ابيب... وهو ما ردّت عليه ابنةُ طه حسين مؤكّدة أنّ والدها كان في طريقه بالسيارة إلى لبنان عندما أعرب عن رغبته في زيارة القدس والمسجد الأقصى، وأنّه قضى في فلسطين عدّة ساعات لكي يحقّق هذه الرغبة.

(٨) لطفي الخولي نموذج لهؤلاء المثقفين، كما طرح الفكرة في المعرض الأخير للكتاب في القاهرة.

التناحري التناقضي مع المركزة الامبريالية الأمريكية وأداتيّها: الكيان الصهيوني والنظام العربي. وهذا يقتضي تمسّكنا بحقنا في الدفاع المشروع عن وطننا العربي بكلّ الوسائل الممكنة والمتاحة.

لقد أظهرتْ تلك المجازرُ العدوَّ الصهيوني ثكنةً عسكرية نازية، وبيّنتْ أنّ كيانه يفتقد لأي سمةٍ من سمات المجتمعات الإنسانية. وإذا كان على المثقفين العرب أن لا يكتفوا بالمطالبة بمحاكمة زعماء «إسرائيل» وحدهم، بل كيانها نفسهِ بوصفه مجرمَ حرب، فإنّ ذلك لا يسقط حقّ العرب المشروع في الغضب والأمل والحلم وفي الدفاع المشروع عن كل الأطفال العرب، لأنّهم مستهدفون كلّهم من قِبَل هذا العدو النازيّ....

وإذا كان لا بدّ من تثمين موقف معظم المثقفين العرب في دول الطوق، فلا بدّ من مطالبة مثقّفي الاغتراب، والمغرب والخليج العربيين، بموقفٍ مواجهٍ يوقف الهرولةَ الثقافية تجاه العدو التاريخي الأمريكي – الصهيوني، كما يوقف كل أنماط البغاء الفكري الذي مهّد لمجزرة قانا وأمثالها، ويساهم في فضح الهرولة المحمومة نحو ذلك العدوّ من قبل القائمين على النظام العربي...

حمص

لا أبارك التنازل!

الصديق العزيز الدكتور سهيل ادريس

(...) لقد رفض اليهود الصهاينة السماحَ لي بالعودة إلى الوطن، رغم صدور موافقتهم على عودة كل أعضاء المجلس الوطني الفلسطيني... لقد انتظرتُ عند الجسر.. وعدتُ إلى عمان وأصدرتُ بياناً أفضح فيه ما يحدث. وطبعاً كما تتوقع منّي فقد رفضتُ المشاركة في دورة المجلس الوطني الفلسطيني، وهاأنذا أرسل لكم البيان الذي وزّعْتُهُ على الصحافة – هنا [في الأردن] وفي الخارج.

إنّنا في زمن عربي تتفشى فيه الهزيمةُ وروحُ الانكسار واللاأخلاق والانتهازية والعدمية. ومن أسفٍ أنّ كُتّاباً ومثقفين سبقوا السياسيين في فسادهم وخراب ذممهم وتزويرهم.

أنا لست ضد عودة أي فلسطيني يتمكن من الحصول على حق العودة، ولكنني بالتأكيد لا أرضى لأيّ مبدع فلسطيني أن ينافق ويتنازل، ويَزُورَ [«إسرائيل»] استرضاءً وسعياً لمكاسب زائلة، غير لائقة(...)

إنني أتلو الفاتحة على أرواحنا... أما شهداء قانا فهم أحياء عند ربهم، كشهداء العامرية والحرم الابراهيمي وصبرا وبحْر البقر و...

وفيما يلي نصّ البيان:

السيد رئيس المجلس الوطني الفلسطيني/ بالنيابة المحترم

تحية وبعد،

فقد تسلّمتُ دعوتَكم لي لحضور دورة المجلس الوطني الفلسطيني الحادية والعشرين العادية، وإنني أرى ما يلي:

أولاً: إنّ عقد دورة المجلس الحادية والعشرين في هذا التاريخ يأتي استجابةً للرغبة والمصلحة «الإسرائيلية».

ثانياً: كان يُفترض عقدُ هذه الدورة بعد حوار وطني شامل تشارك فيه كافةُ الفصائل الفلسطينية وبخاصة الإسلامية («حماس» و«الجهاد الإسلامي»).

ثالثاً: إنّ عقد دورة المجلس الحادية والعشرين قد «طُبخت» لإلغاء البنود الأساسية في الميثاق الوطني الفلسطيني وفقاً للاتفاقات التي تَمّتْ في «أوسلو». وأنا كعضو مجلس وطني فلسطيني لي موقفٌ واضحٌ عبّرْتُ عنه وكتبته في الصحافة العربية. إنني أعلن تشبُّثي بالميثاق الوطني الفلسطيني وبرفضي التامّ لمجرّد مناقشة بنوده. فأنا كعضو مجلس وطني فلسطيني شُرِّفْتُ بحمل الأمانة شريطةَ الحفاظ على الميثاق الوطني وفقاً للنظام الأساسي للمجلس.

رابعاً: إنّ إصراركمْ على عقد هذه الدورة رغم استمرار العدوان الصهيوني «الإسرائيلي» على لبنان العربي، [ذلك العدوان] الذي يقوده منظِّر الشرق أوسطية شمعون بيرس حاملُ ثلث جائزة نوبل للسلام، لهو أمر يثير الاستهجانَ والذهول. فهل هكذا يُدار الظَّهْرُ للشعب اللبناني الذي ضحّى من أجل فلسطين، وقدم لثورتنا الحماية، وصمدنا في عاصمته البطلة بيروت وبجماهيرها؟! وهل هكذا نتصدّى لشمعون بيرس المجرم الذي يُدمّر مخيّماتنا الفلسطينية في لبنان؟!

خامساً: إنّ سياسة تعويم المجلس هي أكبر دليل على عدم الجدية في مواجهة التعقيدات الراهنة والمخاطر التي تحيق بقضيتنا وشعبنا.

سادساً: إنّ حملة الاعتقالات التي تُشنّ على الجهات الإسلامية المجاهدة («حماس» و«الجهاد الإسلامي») كبديل للحوار الوطني، واقتحام الجامعات رغم الوعود والتعهدات، وما حدث في جامعة النجاح من جديد، وملاحقة الصحفيين وأصحاب الرأي من قبل أجهزة السلطة الفلسطينية... تدفعني لرفض المشاركة في هذه الدورة غير العادية، الخطيرة النتائج على قضيّتنا وشعبنا.

سابعاً: إنّ توجيهكم الدعوةَ لأعضاء المجلس الوطني الفلسطيني تحت عنوان «دورة بناء الوطن والدولة المستقلة» يدفعني، مع الأسف، أن أقول لكم بأنّ ما يحدث قد يقود إلى الألم وإلى تمزُّقٍ للصفوف، وهما أمران نحن كشعب عربي فلسطيني في غنى عنهما.

ثامناً: إنّني ككاتب أنتمي إلى تراث الحركة الثقافية في فلسطين لا أرضى لنفسي بأن أبارك التنازل عن جوهر قضيتي الوطنية والقومية لصالح أوهامٍ، خاصةً وقد رأينا ما فعلته سلطاتُ «إسرائيل» من مصادرة للأرض وسرقة للماء ومواصلة سجن للألوف من إخوتنا وأخواتنا، ومن قتل واغتيال.. إلخ. فهل هذا هو سلام الشجعان؟ وهل هذا الذي نراه في لبنان من أهوال وخراب هو الشرق الأوسط الجديد؟!

رشاد ابو شاور

عضو المجلس الوطني الفلسطيني

(عمّان في ٢٢ نيسان/ابريل ١٩٩٦)